الباب السابع

علاقة الحسبة عند بعض العلماء

(نماذج)

الفصل الأول : الحسبة عند الإمام الغزالي ٤٥٠هـ - ٥٠٥هـ

الفصل الثانى : الحسبة عند شيخ الإسلام ابن تيمية ٦٦١هـ - ٧٢٨هـ

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الحسبة عند الإمام الغزالي

كتب أبو الحسن علي الحسني الندوي كتاباً تحت عنوان " رجال الفكر والدعوة في الإسلام " وكتب فصلاً تحت عنوان " حجة الإسلام الغزالي ، حياته ودراسته " وكتب كذلك عنوان جانبي تحت كلمات " نقد المجتمع والحسبة عليه" نثبته هنا لنعرف دور الإمام الغزالي في الإصلاح والحسبة .

نقد المجتمع والحسبة عليه :

وكان لابد للإصلاح الذي نهض له الغزالي ، وجاشت له نفسه ، وتحركت مواهبه ، أن يعرف المجتمع الإسلامي مواضع الضعف والفساد في حياته ، ويعرف علله وأدواءه ، وكان لابد لذلك من أن تعرف طبقاته المختلفة ، كيف لبس إبليس ؟ وما هي الأوهام التي يعيش فيها ؟ وكيف تغيرت المفاهيم الدينية ؟ وكيف تشوهت الحقائق ؟ وكيف تشاغل الناس بالظواهر والأشكال والرسوم ؟ وكيف ابتعدوا عن الحقائق والمقاصد ، حتي أصبح المجتمع كله – إلا من عصم الله – في شغل شاغل عن الآخرة ، والساعون لرضي الله تعالي ، قله قليلة .

عرف الغزالي هذا قبل أن يؤلف الكتاب؛ فنظر إلي المجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة؛ وتناوله طبقة طبقة، فذكر أمراضها ومغالطتها، وميز بين المقاصد والغايات، والوسائل والآلات، وقسم العلوم :بين العلوم الدينية وبين العلوم الدنيوية، وبين العلوم المحمودة والعلوم المذمومة، وبين فرض العين وفرض الكفاية، ونبه علي ما هو فرض عين ومتعين في زمانه لا يسع العالم تركه، وما فيه متسع ومندوحة، وذكر العلل التي تخص الأغنياء وأهل اليسار وذكر أوهامهم وغرورهم ، وانتقد الملوك والأمراء بشجاعة، وأنكر عليهم مظالمهم وأعمالهم المخالفة للشرع ن وقوانينهم المعارضة للدين ، وذكر شيئاً كثيراً من

أمراض العامة ، والمنكرات القياسية في مختلف الطبقات ، والعادات المذمومة والعوائد الجاهلية ، والبدع المنتشرة ؛ وبذلك كان هذا الكتاب موسوعة إسلامية اجتماعية ، وأوسع كتاب وأقواه في نقد المجتمع والدعوة إلي الإصلاح .

ونتناول طبقة طبقة للحديث .

العلماء ورجال الدين :

يعتقد الغزالي أن التبعية الكبري في هذا الفساد الشامل ، والضعف في الدين والإنحلال في الأخلاق ، تقع علي العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول في فساد هذه الأوضاع ؛ لأنهم ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذي يصلحه ؟ ويتمثل الغزالي ببيت خوطب فيه العلماء :

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد [1]

ويذكر كيف مرضت قلوب الناس ، اشتدت الغفلة عن المعاد ، ويذكر أسباب ذلك ، فيذكر منها مرض العلماء واعتلالهم ، وهم أطباء القلوب ، يقول :

والثالثة : وهو الداء العضال – فقد الطبيب؛ فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً ، وعجزوا عن علاجه .

ويقول في موضوع آخر :

"فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولي عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلي علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً ، والمرض مزمناً ، واندرس هذا العلم وأنكر بالكلية طب مرضها ، وأقبل الخلق علي حب الدنيا ، وعلي أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات"[2]. ويرد الغزالي فساد الملوك والأمراء ،إلي ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم يقول :

---

(1) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٥٤.

(2) ص ٥٤ ج ٣ .

" وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد للملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء ، لقل فساد الملوك ، خوفاً من إنكارهم "[1].

ويلوم الغزالي العلماء على تقاعدهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلمة الحق عند سلطان جائر ، ويعلل ذلك بوقوع العلماء في شباك الأمراء ، وحبهم للدنيا وطلبهم للجاه . ويقول – بعد ما يروي حكايات تدل علي شجاعة العلماء السلف ، وإنكارهم علي الملوك والكبراء - :

" فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، ولكنهم اتكلوا علي فضل الله تعالي أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالي أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا الله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية ، فلينها ، وأزال قسوتها .

وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء ، فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم ، فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولي عليه حب الدنيا لم يقدر علي الحسبة علي الأراذل ، فكيف علي الملوك والأكابر ؟ والله المستعان علي كل حال [2] ".

لاحظ الغزالي – وقد قضي مدة طويلة في التدريس والإفتاء ، وعاش بين العلماء وخبر سيرتهم – أنه قد شغل الناس بالجزئيات الفقهية ، والمسائل الخلاقية ، ووقع الاكتفاء بعلم الفقه والفتيا ،وانصرف بذلك العلماء وطلبة العلم عن العلوم النافعة ، والأشغال المفيدة الأخري ،

---

(1) ص ١٣٢ ج ٢ .
(2) الإحياء ص ١٢ ج ٣ .

وشغلوا عن العلم الذي يصلحون به نفوسهم ، وينالون به سعادة الدنيا والآخرة ، وجهلوه ، يقول :

" ولو سئل فقيه عن معني من هذه المعاني ، حتي عن الإخلاص مثلاً ، أو عن التوكل ، أو عن وجه الاحتراز عن الربا ، لتوقف فيه ، مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة . ولو سألته عن اللعان ، والظهار ، والسبق ، والرمي، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تقتضي الدهور ولا يحتاج إلي شيء منها ، وإن أحتيج لم تخل البلد ممن يقوم بها ، ويكفيه مؤنه التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً، وفى حفظه ودروسه، ويغفل عما هو مهم لنفسه فى الدين، وإذا روجع فيه، قال: اشتغلت به، لأنه علم الدين، وفرض الكفاية، ويلبس عليه نفسه وعلى غيره وفى تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية، لقدم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات، فكيف من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ! ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نورى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات. والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتاوى، والجواب عن الوقائع، فليت شعرى ! كيف يرخص فقهاء الدين فعل الاشتغال بفرض الكفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا، وحيازة ما للأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم على الأقران، والتسلط به على الأعداء؟ [1].

ولاحظ كذلك – وقد شاهد بعينه – أنه قد نفقت سوق المناظرات في الفقه والعقائد وعلم الكلام ، وطغت علي كل شيء حتي أصبحت زينه الأعراس والمآتم ، ومجالس الملوك والأمراء ، وأصبحت كسباق الخيل ، ونطاح الأوعال ، وتناقر الديكة يتفرج عليه الأغنياء والأمراء .

---

(1) الأحياء ص١٩ ج١.

وقد ذكر أن عظم إقبال العلماء علي هذا الفن ، وبراعتهم فيه ، لرغبة الملوك والأمراء في ذلك ، وتطورت مع تطور رغبة الأمراء واتجاهاتهم . وانما الملوك سوق يجلب إليها بضاعة تروج فيها . وهو في ذلك يظهر مؤرخاً دقيق النظر ، قوي الملاحظة . يقول بعد ما ذكر الدور الأول :

" ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء ، ومن يسمع مقالات الناس ؛ في قواعد العقائد ، ومالت نفسه إلي سماع الحجج فيها ، فعملت رغبته إلي المناظرة والمجادلة في الكلام ؛ فأكب الناس علي علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله ، والنضال عن السنة ، وقمع المبتدعة ، كما زعم قبلهم أن غرضهم بالإشتغال بالفتاوي الدين ، وتقلد أحكام المسلمين ؛ إشفاقاً علي خلق الله ، ونصيحة لهم .

ثم ظهر بعد ذلك ظهور ، من لم يستصوب الخوض في الكلام، وفتح باب المناظرة فيه ؛ لما كان قد تولد فتح بابه من التغصبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المفضية إلي إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلي المناظرة في الفقة ، وبيان الأولي من مذهب الشافعي وأبي حنيفه رضي الله عنهما علي الخصوص ؛ فترك الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا علي المسائل الخلافية بين الشافعي وابي حنيفه علي الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك ، وسفيان ، واحمد – رحمهم الله تعالي – وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ، وتمهيد أصول الفتاوي . وأكثروا فيعا التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها أنواع المجالات والتصنيفات ، وهم مستمرون عليه إلي الآن ، ولسنا ندري ، ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار . فهذا هو الباعث علي الاكباب علي الخلافيات والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلي الخلاف مع إمام آخر من الأئمة ،

أو إلي علم آخر من العلوم ، لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعليل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوي التقرب إلي رب العالمين "[1].

وتكلم بعد ذلك الغزالي بتفصيل في آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق ، وقد عرف ذلك عن تجربة واختبار ؛ فقد كان فارس هذا الميدان . وإماماً من أئمة هذا الشأن ، وكلامه كلام خبير مجرب [2].

وقد فطن الغزالي – لذكائه الباهر وتجربته العلمية – أن من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر ، وبعدهم عن الحقائق ، هو أنه قد فشا في هذا العصر استعمال كلمات القرآن والحديث في غير محلها ، وفي غير معناها الأصيل القديم ، وصار يفهم منها ما لم يكن يفهم في العصر الأول . يعقد في كتابه الإحياء فصلاً خاصاً في بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ويقول في مفتتحه :

"اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة ، وتبديلها ، ونقلها بالأغراض الفاسدة إلي معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ، وهي خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير والحكمة ، فهذه أسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ؛ ولكنها نقلت الآن إلي معان مذمومة ؛ فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم "[3].

ثم شرح أن اسم الفقه كان يطلق في العصر الأول علي علل طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلي نعيم الآخرة ، وإستيلاء الخوف

---

(1) الإحياء، ص ٣٧ ج ١ .
(2) راجع الجزء الأول من كتاب الإحياء، ص ٤٠-٤٣.
(3) ص ٢٨ ج ١ .

علي القلب، فخصص من هذا العصر بمعرفة الفروع الغريبة في المقالات المتعلقة بها. وكان لفظ العلم يطلق علي العلم بالله تعالي وبآياته، وبأفعاله في عباده وخلقه، وتصرف فيه أهل الزمان بالتخصيص ، حتي شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها .

وكان التوحيد عند الأولين ، هو أن يري الأنسان الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ؛ فلا يري الخير والشر كله إلا منه جل جلاله ، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة علي التشدق فيها ، بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات ؛ حتي لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وتسمي المتكلمون العلماء بالتوحيد والتذكير هو الذي عناه الله سبحانه وتعالي بقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنقل ذلك إلي ما تري أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه ، وهو القصص ، والأشعار ، والشطح ، والطامات . والحكمة هي التي أثني الله عز وجل عليها فقال تعالي (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) فصار اسم الحكيم يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم ؛ حتي علي الذي يدحرج القرعة علي أكف السوادية في شوارع الطرق [1] " .

وبعد هذه المقارنة بين معاني هذه الألفاظ القديمة ومحل استعمالها ، وبين معانيها المحدثة ومحل استعمالها ، وبيان التحريف الذي وقع في إطلاق هذه الكلمات وتفسيرها يقول :

" فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلي المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبدل الأسامي ، فإن اتبعت هؤلاء ؛ اعتماداً علي الاسم المشهور من غير التفات

(1) ص ٢٨ ج ١ .

إلي ما عرف في العصر الأول ، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة ما يسمي حكيماً ؛ فإن اسم الحكيم صار يطلق علي الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ [1] ."

وهكذا يهيب الغزالي بالعلماء ، في قوة وصراحة وشجاعة وإخلاص وعمق وتحليل علمي ، ويثير فيهم اللغيرة والشعور ، ويستحثهم علي الرجوع إلي مركزهم في الأمة ، وهو خلافة الأنبياء والوصاية الدينية والخلقية على المجتمع الإسلامي ، والحسبة علي الحكومة والحاكم ، والخواص والعوام ، معتقداً بأنهم حجر الزاوية في إصلاح المجتمع ، وبصلاحهم صلاح العالم ، وبفسادهم فسا العالم . ثم يلتفت إلي السلاطين والأمراء ، لأنهم الركن الثاني في إصلاح النوع الإنساني .

الملوك والأمراء :

لقد كانت الحكومات في عصر الغزالي حكومات شخصية مستبدة . وكان نقد السلاطين ، علي سياستهم وأموالهم وتصرفاتهم ، مجازفة بالحياة ومغامرة قد تؤدي إلي الحبس والإهانة والعقوبات المؤلمة . وكثير ما تؤدي إلي القتل والنفي . وكان الذي يرفض وظيفة أو منصباً يقدمه السلطان ، أو يرفض عطية سلطانية ، يعتبر في أكثر الأحيان خارجاً علي الحكومة غير وفي لها ؛ ولكن كل ذلك مما كان يعلمه الغزالي – وهو العالم المطلع الواعي – لم يمنعه من إبداء رأيه الصريح في أموال الملوك ، والسلاطين في عصره ، وعن نقد سياستهم المالية . ويقول في الاحياء : " إن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا ، والحلال هو الصدقات والفيء ، والغنيمة ؟ ولا وجود لها ! وليس يدخل منها في السلطان ، ولم يبق إلا الجزية ، وإنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به ، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسب ذلك إلي ما ينصب إليهم

(1) انظر الإحياء بين ما يدل علي ألفاظ العلوم ص ٢٨ – ٣٤ الجزء الأول .

من الخراج المضروب علي المسلمين ، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشرية [1] ".

ويعرف الغزالي – وهو الذي عاش بين العلماء – أن كثيراً من أهل العلم ، والمتصلين بالملوك والأمراء ، يستدلون بقبول كثير من السلف أموال السلاطين وجوائزهم وصلاتهم ، غيبين الفرق بين الأوضاع الأولي وأوضاع العصر ، ويثبت أهن لا يصح القياس علي أحوالهم ، يقول:

إن الظلمة في العصر الأول – بقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين- كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوقين إلي استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلدون المنه بقبولهم ، ويفرحون به ، وكانوا بيأخذون منهم ويفرقون ، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ، ولا يغشون مجالسهم ، ولا يكثرون جمعهم ، ولا يحبون بقاءهم ؛ بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان ، وينكرون المنكرات منهم عليهم ؛ فما كان يحذز أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن يأخذهم بأس .فأما الآن ، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طعموا في استخدامهم والتكثر بهم ، والاستعانة بهم علي أغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم المواظبة علي الدعاء والثناء ، والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً ، وبالتردد في الخدمة ثانياً ، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له علي أغراضه عند الاستعانه رابعاً ، وبتكثر جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحب والموالاه والمناصرة له علي أعدائه سادساً ، وبالتستر علي ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعاً ، لم ينعم بدرهم واحدة ، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً : فكذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه

(1) انظر الإحياء ما بدل من ألفاظ العلوم ص١٢٢ ج ٢ .

حلال لإفضاله إلي هذه المعاني ، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه! فمن استجرأ على أموالهم ، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاس الملائكة بالحدادين " [1].

وقيمة هذه الكلمة الجرئية لا تعرف إلا في جو الحكومات الشخصية الرهيب الذي كانت كلمة واحدة تصدر من عالم أو مؤلف في نقد ملك أو حاكم تطيح بحياته .

ولم يكتف الغزالي بالدعوة إلي الامتناع من قبول العطايا السلطانية ورفضها ، بل دعا إلي الاعتزال عن السلاطين الجائرين ، واعتقاد بغضهم ، وكراهة حياتهم ، والابتعاد عن المتصلين بهم ، يقول في الإحياء : " الحالة الثالثة : أن يعتزل عنهم ؛ فلا يراهم ولا يرونه ، وهو الواجب ؛ إذا لا سلامة فيه ؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يجب بقاءهم ، ولا يثني عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ، ولا يتقرب إلي المتصلين بهم [2].

مصارحته السلاطين بالحيف وحثهم علي الإصلاح :

ولم يقتصر الغزالي علي إبداء آرائه في السلاطين الجائرين في مؤلفاته؛ بل أبدي رأيه وجهر بالحق والنصيحة أمام الملوك كل ما سنحت له فرصة، وقد قال للسلطان " سنجر بن ملك شاه " السلجوقي الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلي اقصاها: "أسفاً ! إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بلالأطواق الذهبية " [3].

وقد كتب إلي أخيه الأكبر محمد بن ملك شاه – وكان أكبر ملوك عصره – رساله ذكره فيها بمسؤوليته ، وحذره من عقاب الله وغضبه ، ولفت نظره إلي إصلاح المملكة .

---

(1) إحياء علوم الدين ١٢٢– ١٢٣ .
(2) أيضاً ص ١٢٨ ج ٢ .
(3) رسائل الإمام الغزالي بالفارسية .

وكان الوزير في الحكومات الشخصية في الشرق هو الذي يملك زمام المملكة ، وبيده الحل والعقد ؛ فإذا صلح صلحت الدولة ، وإذا فسد فسدت الدولة ، وكان الغزالي يعرف هذا جيداً ، وقد عاصر " نظام الملك " الطوسي وزير المملكة السلجوقية العظيمة ومدبرها ، وعاصر أبناءه ؛ فاعتني بوزارة المملكة أكثر مما اعتني بالملوك ؛ لأنهم مفتاح المملكة ، وموجهوها ، والمباشرون للأمور ، وكتب إلي وزارة المملكة رسائل مستفيضة، ولفت نظرهم بكل جرأة وصراحة إلي فساد الأوضاع ، وجور الحكام وابتزازهم للأموال ، وما كان يعانيه الشعب من حبيف الأمراء ، وغفلة المسئولين وطمع الموظفين ، وحذرهم عقاب الله وبطشه ، وذكرهم بمصير الوزراء السابقين ، والحكام الظالمين وحثهم علي إصلاح الجهاز الإداري ، وتنظيم الحكومة والضرب علي يد الظلمة . ورسائلة الفارسية التى وجهها في هذا المعني إلي الوزراء مثل الشجاعة والصدع بالحق ، مثال لقوة الإنشاء وبلاغة التعبير . ومنها رسالة إلي فخر الملك ، يقول فيها :

" اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجيهك من اسفرائن ودامغان خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب ، واعتذر الظالمون إلي المظلومين واستسمحوهم ؛ لا كانوا يتوقعون من إنصاف منك ، واستطلاع للأحوال ، ونشاط في الإصلاح . أما وقد وصلت إلي طوي ، ولم ير الناس شيئاً فقد زال الخوف ، عاد الفلاحون والخبازون إلي ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلاد بخلاف ذلك ، فاعلم أنه عدو دينك .

واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب، وقد نصحت للعميد كثيراً ولكنه لم يقبل النصيحة، وأصبح عبرة للعالمين ونكالاً للآخرين. اعلم يا فخر الملك ! أن هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية لا يجرؤ عليها من

قطع أمله في جميع الملوك والأمراء فاقدرها ؛ فإنك لا تسمعها من غيري ، وكا من يقول غير ذلك ، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق .

وكتب إلي مجير الدين :" إن إغاثة الخلق واجبة علي المجتمع ؛ فقد تجاوز الظلم عن الحدود ، ولم استطع أن أشاهد هذا الظلم ، فهاجرت من طوس ولي سنة ؛ حتي أشاهد هؤلاء الظلمة الذين لا يحملون ، ولا يراعون حرمة ، وقد ألجأتني بعض الضرورات إلي زيارة البلد ؛ فوجدت الظلم مستمراً لم ينقطع "[1].

ويقول في هذا الكتاب : لقد بلغت المدية العظم ، وبلغ السيل الزبي ، وكاد المسلمون يستأصلون ، وأما ما قسمه الموظفون من الدنانير علي أهل البلد – أمانة من الملك – أخذوا أضعافها من الرعية ، وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ، ولم يصل منها شيء إلي السلطان "[2].

ولم يقتصر الغزالي علي بذل النصيحة لملوك عصره ووزرائهم وتوجيههم الديني ، وتحذيرهم من سخط الله، بل كان يبحث – لعلو همته وحرصه علي إقامة الدين وإسعاد المسلمين – عن دولة فتيه تقوم علي أساس ديني متين ، وفكر ديني سليم ، وكأنه يائساً من الحكومات الإسلامية المعاصرة ؛ فقد سري فيها الوهن ، واستولي عليها الفساد ، وقد قامت في عصره دولة قوية نشيطة بريئة من كثير من علل الحكومات الإسلامية القديمة ، وهي دولة الملثمين في المغرب ، وكان علي رأسها رجل هو أقوي ملوك المسلمين في عصره وأنشطهم ، هو يوسف بن تاشفين ، صاحب مراكش ، ويحدثنا ابن خلكان ،أ، الغزالي قصده لعله يتعاون معه علي توجيه الحكومة ، يقول ابن خلكان : بلغني أن الإمام ، حجة الإسلام ، أبا حامد الغزالي – تغمدة الله تعالي برحمته – لما سمع ما هوعليه من الأوصاف الحميدة ، وميله

(1) رسائل الإمام الغزالي الفارسية .
(2) رسائل الإمام الغزالي الفارسية .

إلي أهل العلم ، عزم علي التوجه إليه ؛ فوصل إلي الإسكندرية ، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه ، فوصله خبر وفاته فرجع عن ذلك العزم [1] .وإذا فات الغزالي أن يجتمع بيوسف بن تاشفين ، فقد ساق الله إليه – وهو في بلده – من قدر الله علي يده قيام دولة جديدة تقوم علي الدعوة والإصلاح ، وعلي الخير والصلاح ، وهو محمد بن عبد الله بن تومرت ، والذي كان علي يده زوال دولة الملثمين التي فسدت وجارتبعد مؤسسها يوسف ابن ناشفين ، وقيام دولة الموحدين ، وقد قال عنه ابن خلدون .

" ولقي – فيما زعموا – أبا حامد الغزالي، وفاوضه بذات صدره، فأراده عليه، ولما كان في الإسلام حينئذ بأقطار الأرض اختلال الدولة، وتفويض أركان السلطان الجامع للأمة ، المقيم للملة ، بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التى يكون بها الاعتزاز والمنعة .

وإذا صحت هذه الرواية ، فإن للغزالي فضلاً ونصيباً في توجيه الرجل الذي كان صاحب دعوة وحركة في المغرب، أنتهت إلي قيام دولة فاضلة تتمسك بالدين وتقيم القسط وتمنع الظلم، وترفع شعائر الإسلام[٢].

طبقات المسلمين الأخري :

ولم يكن نقد الغزالي مقتصراً علي العلماء والسلاطين والامراء ؛ بل أنه استعرض المجتمع الإسلامي المعاصر كله ، فذكر ما انتشر فيه من بدع ومبتكرات وأوهام ومغالطات ، ويدل كتاب الإحياء علي أنه – وإن نشأ نشأة علمية وعاش بين الكتب والتلاميذ – كان متصلاً بالمجتمع اتصالاً وثيقاً ، وقد درسه دراسة عميقة ، وكان واسع الاطلاع على المدينة في عصره ، وأساليب الحياة ، وأجواء الطبقات ، وأن ما ذكره من أخلاق مختلف الطبقات وعللها ، ليدل على دلاله واضحة على قوة ملاحظته ، ودقة نظره . وقد عقد في كتابه باباً مستقلاً في المنكرات

(1) وفيات الأعيان ترجمة يوسف بن تاشفين .

(2) اقرأ أخبار عبد المؤمن بن علي ودولة الموحدين في تاريخ ابن خلدون الكتاب الثالث أخبار البربر.

المألوفة في العادات والتقاليد ، وألفها الناس ؛ فلا يشعر كل واحد بأنها منكرات دخيلة علي الحياة الدينية ، وقد دقق فيها واستوعبها استيعاباً لا يقدر عليه إلا من عاشر الناس معاشرة طويلة، وخبر الحياة ودرسها دراسة واسعة عميقة، ذكر فيها منكرات المساجد ومنكرات الأسواق، منكرات الشوارع ومنكرات الحمامات ، ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة [1] .

وخصص الغزالي جزءً من الكتاب بذم الغرور ، ذكر فيه أصناف المغترين وفرق كل صنف ، ذكر منهم المغترين من أهل العلم وفرقهم ، والمغترين من المتصوفة ، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخل النفس في الطبقات وأصنافها ، وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعقدهم النفسية ما لا يطلع عليها إلاعالم كبير من علماء النفس ، مصلح اجتماعي ذكي له تجارب طويلة ونظر نافذ .

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم في غلوهم في الإكثار من الجزئيات الفقهية، والخلافية، والكلام، والجدل والتعمق في العلوم الآلية: كالنحو، واللغة، والشعر، والغريب، والإنهماك به. وانتقد الصوفية بالاكتفاء بحفظ أقوال المشائخ وأخبارهم ، ولاحظ هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم ؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع [2].

وذكر من التباسات الصوفية ومبالغتهم شيئاً كثيراً يدل علي إنصافه وتدقيقه [3] .

---

(1) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٩٤ – ٣٠٠ .
(2) ج ٣ ص ٣٤٣ .
(3) انظر: المجلد الثالث ص ٣٤٥ –٣٥٠ .

وقد ذكر عن المغتربين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل علي النظر العميق ، والفهم الديني الصحيح يقول :

" ربما يحرصون علي إنفاق المال في الحج ، فيحجون مرة بعدأخري ، وربما تركوا جيرانهم جياعاً ، ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب ، يهون السفر عليهم ، ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والغفار ، وجاره مأسور بجنيه لا يواسيه "[1] .

ويقول :

" وفرقة أخري من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات الدينية التي لا يحتاج فيها إلي نفقة ، كصيام النهار وقيام الليل ، وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولي علي بواطنهم ، فهو يحتاج إلي قمعه لإخراج المال ، وقد اشتغل بطلب فضائل وهو مستغن عنها ، ومثاله من دخل في ثوبه حية وقد أشرف علي الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجين بليسكن به الصفراء ، ومن قتله الحية متي يحتاج إلي السكنجين !؟ ولذلك قيل لبشر إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة؛ فقال المسكين : ترك حاله ودخل في حال غيره ؛ وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع ، والإنفاق علي المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدينار ومنعه للفقراء [2] .!

ويقول عن العامة وطوائف الأغنياء والفقراء :

" وفقرة أخري عن عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغتروا بحضور مجالس الذكر ، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم علي مجرد سماع الوعظ – دون العمل ودون

---

(1) انظر المجلد الثالث ص ٣٥١ .

(2) ص٣٢٥ الجزء الثالث .

الألفاظ – أجراً ، وهم مغرورون ؛ لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير ، فإن لم يهيج الرغبة ، فلا خير منه ، والرغبة محمودة ؛ لأنها تبعث على العمل ،فإن ضعفت عن الحمل على العمل ، فلا خير فيها . وما يراد لغيره فإذا قصر عن الاداء إلي الغير ، فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم ، وربما يسمع كلاماً مخوفاً ، فلا يزيد علي أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلم أو نعوذ بالله ! أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتي بالخير كله وهو مغرور وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء ، فيسمح ما يجري ، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ن وذلك لا غني عنه عن مرضه وجوعه شيئاً ؛ فكذلك سماع وصف الطاعات – دون العمل بها – لا يغني من الله شيئاً ؛ فكل وعظ لا يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك ؛ حتي تقبل علي الله تعالي إقبالاً قوياً أو ضعيفاً ، وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً [1].

وفي هذه القطع كلها يظهر الغزالي مصوراً حاذقاً ، يتناول بريشته البارعة مجتمع عصره ، فيصور مخايله وقسمات وجهه ، ويجسم دقائقه وتجاعيده ويظهر في ذلك كله ذكاءه وسعة اطلاعه ، ودقة ملاحظته ، وبراعة تصويره وسلامة تفكيره.

مكانته بين علماء الأخلاق :

ويدل كتاب الإحياء في مكانته العالية بين علماء الأخلاق ، وقد بحث عن الأخلاق ودوافعها ومنشئها وأصنافهابحثاً دقيقاً عميقاً ، وتكلم في أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كلاماً يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية . وأن من يقرأ بحثه المستفيض في بيان سبب

(1) إحياء علوم الدين ص ٣٥٢ ج ٢ .

كون الحاه محبوباً بالطبع، حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة ، بيخضع لدراسته وذكائه للطبيعة البشرية ، وتحليله العلمي ، وعقله الكبير [1] .

وقد استحق الغزالي ببحوثه العميقة في الأخلاق ، وبتأليفه العظيم : إحياء علوم الدين " أن يوضع في الصف الأول من علماء الأخلاق، وأن يكون موضوع دراسة وعناية من الباحثين في علم الأخلاق، وعلم النفس، والمؤرخين لهذا الموضوع ؟

كتاب ترغيب وتهذيب :

ومن أشد أجزاء الكتاب تأثيراً في النفس ما يشتمل علي الترغيب والترهيب ، يصور الغزالي غرور الدنيا وخلود الآخرة ، والحاجة إلي الإيمان والعمل الصالح وتهذيب النفس ، ويحذر من أمراض القلب ، ويحاسب النفس، ويدافع عنها ، ويعتذر كأحسن ما يعتذر صديق محب ، ومحام بارع ثم يجيب عن ذلك ويقيم عليها الحجة كأحسن ما يفعل ذلك قاض نابغة وشرع بصير، ثم يرفق القول ويصف العلاج ، كأحسن ما يفعل طبيب حاذق ومرب عطوف ، ويجيء بالعجب العجاب ، ويسحر الألباب ، ويدمع العيون ، ويرقق القلب ن وقد أثرت هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة في قلوب الألوف ، وأحدثت في حياتهم انقلاباً وتحولاً عظيماً ، ومن شاء فليقرأ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها [2].

وقد أصبح كتاب الإحياء بذلك كله كتاب إصلاح وتربية ، وكأن المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب – كمرشد ومرب - ، مغنياً عن غيره ، قائماً مقام المكتبة الإسلامية؛ ولذلك جعله يحتوي علي العقائد ، والفقه وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول علي مرتبة الإحسان .

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين، المجلد الثالث، ص ٢٤١ – ٢٤٤ .
(2) انظر: إحياء العلوم، المجلد الرابع ٣٥٦ –٣٥٨ .

تضرر بعض الناس من كتاب الإحياء :

ولكن مما يلاحظ أن كثيراً ممن يقتصر علي مطالعة هذا الكتاب أو يكثر من قراءته ويشغف به ، ينشأ عنده غلو في الزهد وتقشف ، ومخالفة النفس في المباحات والكراهة للحياة والإكثار من الرياضات والمجاهدات ؛ حتي تتأثر بذلك صحته وعقله ، خصوصاً في هذا العصر الذي ضعفت فيه القوي والأجسام ، لذلك يمنع بعض المربين الحكماء عن مطالعة هذا الكتاب في بداية الحال خصوصاً الذين عندهم تأثر قوي وانفعال سريع ؛ ولعل السبب في ذلك أن الغزالي صنفه في حالة قد غلب عليه فيها الخوف والهيبة وكان متأثراُ شديد التأثر ؛ فجاء كلامه صورة نفسيته وتأثره ، وقد جمع فيه أقولاً كثيرة في الزهد وقهر النفس وعصيانها ، لا تخلو من المبالغة والإسراف .والحق ، أن السيرة النبوية – يدخل فيها الحديث الصحيح – علي صاحبها الصلاة والتحية – هي المدرسة الوحيدة التي تربي تلاميذها علي الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح و" كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر [1]، ويمثل ذلك بعض التمثيل قدرة دينية تجمع بين العلم الراسخ ، والسيرة المستقيمة ، والقلب الحي الفائض قد تشرب السيرة ، وتذوق السنة وذاق حلاوة الإيمان وحاز اليقين ، ولم يزل ولا يزال الدين يؤخذ من الإحياء ، ويقوم بالإحياء ، ولم يكن الإنسان في دور من الأدوار غنياً عن الغدوة والصحبة .

فضل كتاب الإحياء :

وعلي ما تعقب علي الغزالي في الإحياء من إيراد أحاديث ضعيفة ، بل موضوعة في كثير من الأحيان [2] ، وأشياء من كلام الصوفية الممعنة في

---

(1) من كلام الإمام مالك رضي الله عنه .

(2) قام الحافظ الإمام زين الدين العراقي صاحب الألفية بتخريج أحاديث الإحياء وتعريف درجتها سماه " المعني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار " طبع مع الإحياء بمطبعة مصطفي البابي الحلبي .

الغلو ، وهضم النفس وترك المباحات ، وقد لا تتفق مع أصول الدين ، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة ... إلي غير ذلك من مأخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزي [1] ، وشيخ الإسلام ابن تيمية [2] ، مع اعترافهما بفضل الكتاب ؛ فإن كتاب الإحياء في مقدمة الكتب لإسلامية التي انتفع بها خلائق لا تحصي في كل عصر وجيل ، وأثرت في النفوس تأثيراً لا يعرف عن كتب معدودة ، ولا يزال الكتاب الذي يكثر قرؤه والمعجبون به والمأثرون به في أكثر البلاد ولا يزال ثروة ذاخرة في الدين ، مصدراً قوياً من مصادر الإصلاح والتربية .

❖❖❖❖❖

(1) انظر " المنتظم " لابن الجوزي ج ٩ ص ١٦٩ – ١٧٠ طبع دائرة المعارف حيدر أباد .
(2) انظر فتاوي ابن تيمية ج ٢ ص ١٩٤ .

obeikandl.com

الفصل الثانى

الحسبة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

كتب الأستاذ محمد علي كرد رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق مقالاً ونشره في كتيب بعنوان " شيخ الإسلام ابن تيمية " ورأيت أن أخذ منه تعريفاً بشيخ الإسلام ، وهو ترجمة لشيخ الإسلام ، إذ يعد شيخ الإسلام من دعاه الإصلاح في كل مجلات الحياة لا سيما في مجال الحسبة والإصلاح ضرب من ضروب الحسبة أو قل من الحسبة .

ولد بحران سنة إحدي وستين وستمائة ، وقدم مع والده إلي دمشق ، وكانوا قد خرجوا من بلا حران مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين .

طلبه العلم :

فسمع الحديث من أئمته في دمشق ، وسمع " مسند " أحمد مرات ، ومعجم الطبراني الكبير ، والكتب الكبار والأجزاء .

وعني بالحديث ، وقرأ بنفسه الكثير ، ولازم السماع [1] مدة سنين ، ونسخ وانتقي وكتب الطباق والأثبات ، وتعلم الخط والحساب في المكتب [2] ، واشتغل بالعلوم ، وحفظ القرآن ، وأقبل علي الفقه ، وقرأ أياماً في العربية علي ابن عبد القوي [3] ثم فهمها ، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتي فهمه ، وبرع في النحو وأقبل علي التفسير إقبالا كلياً حتي حاز فيه قصب السبق ، وأحكام أصول الفقه ، كل هذا وهو ابن بضعه عشرة سنة ، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه. ذلك ما قاله من ترجموا له في نشأته .

---

(1) أي السماعات، وهي مجالس علم الحديث الشريف .

(2) في الأصل "الكتب" وهو تصحيف، والتصويب للأخطاء المطبعية أغلبها من كتاب ا"الرد الوافر" لابن ناصر الدمشقي و" العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيميه " لابن عبد الهادي، ورسالة " الكواكب الدرية " للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي، و"الاعلام العلية "، للحاظ عمر البزار. وهي من أم مصادر كرد علي في هذه الترجمة

(3) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي ابن بدران المرادي الحنبلي ٦٣٠ – ٦٩٩ .

obeikandl.com

أخلاقه : أما أخلاقه فقالوا :

إنه نشأ في تصون [1] تام ، وعفاف وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خلقاً صالحاً ، براً بوالديه تقياً ورعاً عابداً ناسكاً صواماً قواماً ذاكراً لله تعالي في كل أمر وعلي كل حال راجعاً إلي الله تعالي في سائر الأحوال والقضايا ، وقافاً عند حدود الله تعالي وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ن ناهياً عن المنكر ، " فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه ، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل".

وقبل وظائف والده في التدريس وله إحدي وعشرين سنة .

وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم ، ودرس هو بعده ، فاشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وما أتي له ثلاثون سنة ، حتي كان من أعظم علماء عصره ، بل أعظم عالم في عصره ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، ولا تروي من المطالعة ، ولا تمل من الاشتغال ، ولا تكل من البحث ، وقل أن يدخل في باب من أبواب العلوم إلا وفتح له من ذلك الباب أبواب ، واستدرك أشياء في ذلك العلم علي حذاق أهله .

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره ، فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ، ويأتي بما يحار من أعيان البلد . وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشرة سنة. قال الحافظ الزملكاني [2] : كان إذا شئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله .

---

(1) في الأصل " تصوف " والصواب ما أثبتناه نقلاً عن " الرد الوافر " والعقود الدرية ".

(2) هو قاضي القضاة الحافظ كمال محمد بن علي الزملكاني الشافعي ٦٦٧-٧٢٧. ولقب بقاضي القضاة مما يكره استعماله قياساً على ملك الملوك كما ذكر ابن القيم في " زاد المعاد " وقد كره رسول الله ﷺ أن يقال للسلطان: ملك الملوك. أخرج ذلك البخاري من حديث أبي هريرة فايراوتا لهذا اللقب هنا لا يعني إقرارنا له ولكن رعاية جانب الأمانة العلمية ، ومحافظة علي ما كان مصطلحاً عليه . وهو أعلم من خاصم ابن تيمية ومع ذلك فقد اثني عليه . أنظر " الرد الوافر " الصفحة ٦ و ٥٦ .

وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوب إليه . وكانت له اليد الطولي في حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين .

وقالوا فيه : وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع علي كرسي من حفظه، فكان يورد ما يقوله من غير توقف ولا تلعثم، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فيصيح .وانتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع والشجاعة [1]، والكرم، والتواضع، والحلم، والأناة، والجلالة، والمهابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع الصدق، والأمانة، والعفة، والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهال إلي الله تعالي، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلي الله تعالي، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم .

ولكن رحمه الله سيفاً علي المخالفين ، وشجي في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين ، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصره الدين ، وظنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الأعصار .

وقال الذهبي [2]: إنه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه .... ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر ، وفسر كتاب الله تعالي مدة سنين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر ورجاله وصحيحه وسقيمه مما لا يلحق فيه، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين ،

---

(1) قد ذكر الذهبي شيئاً عن شجاعته أنظر " الرد الوافر " ٣٣ .

(2) هو مؤرخ الإسلام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الشافعي ٦٧٣ – ٧٤٨ ومن قوله: الفقة قال الله قال رسوله – إن صح – والإجماع فاجتهد فيه

وحذرا من نصب الخلاف جهالة بين النبي وبين رأي فقيه

فضلاً عن مذاهب الأربعة ، فليس له فيه مثيلاً ،وأما معرفته بالملل والنحل ، والأصول والكلام فلا أعلم له فيه مثيلاً ، ويدري جملة صالحة من اللغة ، وعربيته قوية جداً ، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب [1].

قال : فإن ذكر التفسير ، فهو حامل لوائه وإن عد الفقهاء ، فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، واستزيد وأبلسوا ، واستغني وأفلسوا. زإن سمي المتكلمون ، فهو ردهم وإليه مرجعهم ، وإن لاح ابن سينا[2] يقدم الفلاسفة فلسهم وبخسهم وهتك أستارهم ، وكشف عوارهم. وله يد طولي في معرفة العربية والصرف واللغة .

وهو أعظم من أن تصفه كلمي ، أو تبينه إشارة قلمي .

وقال في مكان آخر : وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح وبالسقيم ، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهي في عزوه إلي (الكتب الستة) و٠ المسند) [3] بحيث يصدق

---

(1) انظر: رسالة " إعلام العلية في مناقب ابن تيمية " الصفحة ٢٦ فقد ذكر صالحة من مؤلفاته. كما أن الصلاح الصفدي ذكر في الـ " الواقي بالوفيات " عدداً كبيراً منها. ولابن القيم رسالة في مؤلفات ابن تيمية. يظهر أنه كتبها من ذاكرته ولم يستقصي ما ألف، ولعله لم يطلع علي كل مؤلفاته. ومنها ما كتبه قبل اتصاله به. وبعضها لم يبيض وبعضها أخرج من السجن وابن القيم ما زال مسجوناً. والبعض اتحجز عند الدولة وقد أخرج بعد موته بزمن طويل سلال كثيرة فيها بعض ما كتب في السجن .

(2) هو الحسين بن عبد الله الرئيس ابن سيناء الفيلسوف المشهور الذائع الذكر في الشرق والغرب له أكثر من مئة مؤلف ورسالة، في الفلسفة والطب والإلهيات والنفس والرياضة والأخلاق والمنطق. وجاء في الأعلام للعلامة الأستاذ الزركلي: "يأخذ عن الملاحدة المنتسبين إلي المسلمين كالإسماعيلية وكان أهل بيته من أهل دعوتهم، من أتباع الحاكم العبيدي "ولد٣٧٠ ومات٤٢٨هـ" .

(3) الكتب الستة هي: صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن النسائي، سنن الترمذي، سنن ابن ماجه، المسند: هو مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، وقد جدد المكتب الإسلامي تصوير طبعته الكاملة في ستة مجلدات مع فهرس للصحابة صنعه المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني.

عليه ، وأن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث [1]، ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فه من بحر ، وغيره يغترف من السواقي .

وقال أيضاً : كان يقضي من العجب إذا ذكر مسألة الخلاف واستدل ورجح ، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه .

قال : وما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة علي المسألة التي يروردها منه، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه، كأن السنة نصب عينيه، وعلي طرف لسانه ، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة ...

ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلي التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلي التغالي فيه ، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده. وكان أبيض ، أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره إلي شحمة أذنه ن وكأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت فصيحاً، سريع القراءة ، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم، وقال : تعتريه حدة في البحث وغضب تنزع له عداوة في النفوس. كتب الذهبي إلي السبكي [2] يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه :

---

(1) وفي هذا غلو لا يخفي على المتضلعين بعلم الحديث ولا يرضاه ابن تيمية لو علم به. تقول هذا مع اعترافنا بأنه قد أحاط بالقسم الأوفي من الحديث وقد أسن باستدراكه بقوله: لكن الإحاطة لله .

(2) هو قاضي القضاة أبو حسن السبكي وكانت بينه وبين ابنه وتلامذتهم من جهة وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذة مجادلات وردود وهذه الكلمة تذكر للسبكي بالتقدير رحم الله الجميع .

وأما صاحب الكلمة التى وضعناها علي الغلاف فهو بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البر بن يحيي بن غانم السبكي المولود بدمشق سنة ٧٠٧ والمتوفي في سنة ٧٧٧ . والمترجم بالرد الوافر رقم ١٦ طبع المكتب الإسلامي وتمام الكلمة :

"والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوي فالجاهل لا يدي ما يقول وصاحب الهوي يصده هواه عن الحق وقد أوردها العلامة الشيخ بهجة البيطار في كتاب القيم حياة شيخ الإسلام ابن تيمية الصفحة ٢٢ وأوردها العلامة صديق حسن خان في شرح ألفية ابن ناصر الدين الدمشقي في التاريخ وأوردها في الصفحة ١٠٣ من " القول الجلي " العلامة صافي الدين البخاري الحنفي و" الرد الوافر " الصفحة ٥١.

obeikandi.com

وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين ن فالملوك يتحقق كبير قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعة في العلوم النقلية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك وأجل ، مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه ، لا لغرض سواه ، وجريه علي سنن السلف ، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفي ، وغرابه مثله في هذا الزمان ، بل من أزمان [1] .

وقال ابن سيد الناس [2] : إنه برز في كل فن علي أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت مثل نفسه .

محنه ابن تيمية :

بدأت محنة شيخ الإسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم فناقشوه وكفروه وبدعوه ، واعتقله الولاة وغربوه. وكان منذ سنة تسع وتسعين وستمائة ظهرت شخصيته السياسية في البلاد وبدأ تعويل الأمة عليه دفع أعدائها عنها في نوبه غازان[3]، فقام بأعباء الأمر بنفسه واجتمع بأبنائه وجروا علي المغول[4] توجه بعد ذلك بعام إلي الديار المصرية ثم اشتد الأمر بالشام من المغول واستصرخ بأركان الدولة وحضهم علي الجهاد ثم عاد بعد أيام إلي دمشق وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء علي ذلك إلي ورود الخبر بانصرافهم وقيامه القيام المحمود في وقعة شقحب[5] سنة اثنتين وسبعمائة اجتماعاً بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وتحريضهم

---

(1) في كنوز الأجداد: الأزمان، وهو خطأ مطبعي راجع النص بتمامه في الرد الوافر الصفحة ٥٢ .

(2) هو الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمري الأندلسي الشافعي المتوفي ٧٣٤ ، أنظر ترجمته في " الرد الوافر " برقم ١ .

(3) غزان : قائد جيش التتار الذي حاصر دمشق في المرة الأولي سنة ٦٩٩ .

(4) المغول والتتار أمتان من الجنس الأصفر اكتسحوا العالم الإسلامي فخربوا المدن وأزالوا معالم الحضارة ثم هداهم الله بعد ذلك للإسلام فكان منهم حماة له .

(5) شقحب : عين ماء جنوب دمشق بعد الكسوة علي يمين الذاهب إلي حوران ، جرت فيها معركة عظيمة بين التتار والمسلمين أبلي شيخ إسلام فيها البلاء الحسن ، وكانت في أول رمضان .

علي الجهاد. ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيين [1] واستئصال شأفتهم. ثم مناظرته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم ، وظهوره عليهم بالحجة والبيان ، ورجوعهم إلي قوله طائعين ومكرهين .

ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة إلي الديار المصرية ، في صحبة قاضي القضاة الشافعية [2] ، وعقدهم له مجلساً حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل ، ومعه أخواه [3] سنة ونصفاً، ثم إخراجه بعد ذلك وعقدهم له مجلساً ظهر فيه خصومه ، ثم عقدهم له مجلساً سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية [4] ثم الأمر بتسفيره إلي الشام علي البريد، ثم الأمر برده من مرحلة، وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً ، ثم إخراجه منه وتوجيهه إلي الإسكندرية ، وجعله في برج، حبس فيه ثمانية أشهر.

ثم توجهه إلي مصر واجتماعه بالسلطان [5] في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء ، وإكرامه له إكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض أعدائه ، وامتناع الشيخ عن ذلك .

ثم سكناه القاهرة ، ثم توجهه إلي الشام ، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق .

---

(1) الكسروانيون: هم سكان جبل كسروان من أصحاب العقائد الفاسدة الذين كانوا يداً وعوناً للفرنج والتتار وقد جرت المعركة معهم في مستهل ذي الحجة سنة أربعة وسبعمائة والمعارك والثورات كانت قبل وبعد ذلك منهم .

(2) هو القاضي نجم الدين ابن صصري، كما في العقود الدرية صفحة ٢٤٨ والدرر الكامنة .

(3) هما شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن .

(4) أصحاب وحدة الوجود وهم أنواع، ويجود منهم الديانات الثلاث، كما يوجد منهم في ديانات الهند. وهذه العقيدة أشد من كل كفر، فليس عندهم رب وعبيد ولا خالق ولا مخلوق وإنما كل الكون يشكل كل جزء منها عبد من وجه ورب من ودجه آخر ويقول شاعرهم

وما الكلب والخنزي إلا إلاهنا وما الله إلا راهب في كنيستي

(5) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون المتوفي٧٤١ . وكان ذلك سنة ٧١١ بعد عودة الناصر للملك وعزل الجاشنكير (المظفر) الذي كان من أتباع نصر المنيجي، وأشد الحكام علي ابن تيمية .

إلي أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق، فأشار عليه بعض القضاة بترك الإفتاء بها في سنة ثماني عشرة وسبعمائة، فقبل إشارته دفعاً للفتنة، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوي بها ، ثم عاد الشيخ إلي الإفتاء بها وقال :

لا يسعني كتمان العلم ، وبقي كذلك مدة إلي أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ولم يزل علي عادته من الاشتغال والتعليم .

إلي أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرجال إلي قبور الأنبياء والصالحين وكان أجاب به من نحو عشرين سنة ، فشنعوا عليه بسبب ذلك ، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة ، فأخليت له قاعة حسنة وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه ، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الأمر إلي أن منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً ، وكتب عقيب ذلك بالفحم . وكان إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم، وبقي أشهراً علي ذلك ، وأقبل علي التلاوة والعبادة التهجد حتي أتاه اليقين .

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الإسلام، ومع حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه دأب في كل زمن علي التأليف، فألف ثلاثمائة مجلد وكلها في الشرع، وفي حل مسائل عويصة من الدين تقرأ فيما وصلنا منها مثلاً من علمه النفيس، وعلمه الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله .

كثرت تآليفه، لأنه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنة وما دون في شروحها وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرة محفوظة ، وفيض خاطره ، وسعة بيانه علي تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه ، ولو لم يكن له إلا (منهاج السنة) لكفاه علي

الأيام فخراً لا يبلي ، ففيه مثال من علمه وقوة حجته ، ومعرفته بالملل والنحل ، وإذا قلنا : إنه لم يؤلف نظيره في الرد علي المخالفين لأهل السنة ، لصدقنا كل منصف من أهل القبلة .

وكتاب (منهاج السنة) من أصح الشهادات علي علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه ، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها ، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام ، وتاريخ الملل والنحل .

ولو ادعينا : أنه لم يأت عالم مثله يعرف ما طرأ علي الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويوماً يوماً ما قدر أحد علي رد دعوتنا .

رد علي المعتزلة [1]، وعلي الجهمية ، وعلي الشيعة وعلي الفلاسفة ، وعلي غيرهم . فجاء العجيب من الآراء التى استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره ن وشد بحثه ، فما كتب لإمام من الأئمة في عصره أن يناقصه ويرد أقواله .

وعلي كثره ما حرص الشافعية للتفوق علي هذا الحنبلي [2]، وإقناع العلماء بفتاويهم وتزييف فتاويه ، ما كانوا معه إلا كالأطفال أمام الرجال ، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي ، وما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان .

اعتقلوه في القاهرة والإسكندرية أشهراً لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ ، وما حاولوا دون إعجاب المنصفين من العلماء به وقول الحق فيه، ولا دون تقديس [3] الأمة له يوم موته، وهي التي عرفته

---

(1) المعتزلة: فرقة من الفرق الإسلامية وقد سمي أتباعها بالمعتزلة لاعتزال زعيمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حلقة الحسن البصري لما اختلفا معه في حكم مرتكب الكبيرة، وقالاً إنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقا وقالا: أنهم سموا بالمعتزلة لاعتزالهم رأي الأمة في القول المتقدم، وتتلخص تعاليمهم في الأصول .

(2) كان خصوم الشيخ في الواقع كل من ضاق أفقه أو ظهر حسده من مختلف المذاهب، كما كان أنصاره أيضاً من مختلف المذاهب .

(3) إن تعبير التقديس مخالف لما هو مشروع وتغني عنه كلمة (تقدير، أو تكريم) .

سباقاً إلي كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها ، وكان له في انتصار دوله المماليك علي التتار اليد الطولي التى لا تنكر ، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم ، وأن الدين لا يتفصل عن السياسة في نظرة [1]. وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته ، في إحقاق الحق ، ونصره سلطان الإسلام .

ونسبة قومه إلي أنه يسعي في الإمامة الكبري فإنه كان يلهج بذكر ابن تومرت [2] ويطريه ، فكان ذلم مؤكدا لطول سجنه .

ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلي عن الأسري من النصاري واليهود ، فقال إنهم ذمتنا [3] ولابد من إرجاعهم إلي ديارهم .

وكم له من مثل هذه الحسنات التي أصبحت كأنها قواعد من قواعد الشرع والسياسة ، لا يستغني عنها خليفة ولا سلطان .

إن استعانه خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال إلي قبور الأنبياء والأولياء الصالحين ، وفي غير ذلك من البدع التي أقروها ؟ والشريعة تنكرها إنكاراً ظاهراً !! كما يفهم من آي الكتاب العزيز!! وهدي الصحابة والتابعين والعلماء العاملين ، واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم ، في تلك المعركة الشديدة .

---

(1) بل ولا نظر أي مسلم عرف هذا الدين، وعرف أن السياسة إقامة حكمة مع الصدق والاستقامة .

(2) المقصود من هذا أن ابن تيمية يريد الاستيلاء على الحكم، وتفويض أركان الدولة. كما فعل ابن تومرت في دولة (المرابطون) وأقام دولة (الموحدون). ومحمد بن تومرت ولد سنة ٤٨٥ ومات ٥٢٤. وألف رسالة سماها (المرشدة) علي طريقة الأدعية والعقائد الصوفية. وكان من أهل الخزعبلات. حتي أنه كان يدفن أشخاصاً في القبور، ويواطئهم علي أن يكلموه، إذا دعاهم ويشهدوا له بما طلبه منهم. وأنه المهدي المنتظر !! وذكر ابن تيمية الكثير من أمره، ونهي عن قراءة رسالته (المرشدة). وقول الأعداء هذا هو لتنفير الحكام منه، وأنه سوف يأخذ الحكم منهم بعد أن قوي جداً في عيون الناس. الأمر الذي دعي الحكام لإطالة حبسه.

(3) ذلك أنه خلص أهل الذمة من النصاري واليهود لأن التتار ومن معهم من ملوك النصاري كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم، وكان بعضهم يفتك بالبعض الأخر. فقال ابن تيمية للقائد بولاي – وكان قد التحق مع غازان: بل جميع من معك من اليهود والنصاري، الذين هم أهل ذمتنا ،فإنا نفتكهم ولا ندع أسيراً، لا أهل الملة ولا من أهل الذمة .

ويقول ابن تيمية: وقد أطلقنا من النصاري من شاء الله. فهذا علمنا وإحساننا، والجزاء علي الله .

وانظر رسالته إلي ملك قبرس (قبرص). وزرة المعارف – المكتبات المدرسية) .

قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين، وبقيت الأمة علي إقرار الخرافات والبدع ، إلي يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة ، وكأنهم اخترعوا شريعة أخري ، استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الأصلية ، رغم أنوف الخواص فركبوا عار الأبد ولعنوا بما بدلوا وحرفوا ، وهو لم يأت ببدع ، وهم سلموا بكل البدع ، فكان العالم العامل حقاً ، وكانوا عبدة أوهام وضلالات .

أراد شرعاً نقياً من الأدران، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية، لأنهم يقدون بمناقشتهم الظهور، وكسب قلوب الغوغاء علي أي حال .

ولو عمت دعوة ابن تيمية – لدعوته ما يماثلها في المذاهب الإسلامية ولكنها عنده كانت سارة، وعند غيره فاترة – لسلم هذا الدين من تخريف المخرفين علي الدهر، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعوا لغير الله ، ولا ضريحاً تشد إليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات علي ما ينكره دين أتي للتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال [1].

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاه والعلماء ، وكان الصدر المقدم لما خل في موضوع ديني أو سياسي ، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية أو يسلموه للعامة عليهم يقتلونه فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهراً في السجن ، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره .

وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً ، وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء ، وحثه على أن يفتيه في قتل بعضهم ، فأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء ، وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال له : إنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل، ومن آذي الله ورسوله، فالله ينتقم منه، أنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتي حلم عنهم السلطان وصفح .

---

(1) انظر كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) الطبعة الثالثة للمكتب الإسلامي .

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه ، فلم نقدر عليه ، وقدر علينا ، فصفح عنا وحاجج عنا .

فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون : يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره .

ونحن نقول: إن هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه، وهم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم ، وهو كان يهتم للأخري فقط ، وشتان بين المطلبين .

كان يهتم لنشر الدين والقضاء علي بدع بقلبه ولسانه وقلمه ، وهمهم أن يرضي عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبلوا أيديهم .

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد ، فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، فسلمت القلعة من أذي التتار ، وكان يدور كل ليلةعلى الأسوار يحرض الناس علي الصبر والقتال ، ويتلو عليهم آآيات الجهاد والرباط .

وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب، وكان يعد المسلمين بالنصر هذه المرة، ويؤكد كلامه في ذلك حتى نصروا علي عدوهم .

وفي قتال الجرديين والكسروانيين ، أبان أيضاً عن سياسة رشيدة ، وأرجع بعض الناشزين من أهلها إلي الإسلام .

من أهم المسائل التي تحاول حساد ابن تيمية أن ينالوا بها منه مسألة شد الرحال إلي قبور الصالحين وغيرهم .

قال ابن كثير [1] : إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع من زيارة قبور الأنبياء ، والصالحين وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحال والسفر إلي مجرد زيارة القبور .

---

(1) هو الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١-٧٧٤) ودفن بجوار قبر ابن تيمية ولم يبق من هذه المقبرة الكبيرة سوى قبر شيخ الإسلام . ضمن جامعة دمشق ، خلف المستشفي .

وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة ، وشد الرجل لمجرد الزيارة مسألة أخري .والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها ، ويندب ليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ، ولم يتعرض إلي هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ، ولا قال : إنها معصية ، ولا حكي الإجماع علي المنع منها ، ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ: " زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة "[1].

وثار عليه مرة جماعة من الحسدة وشكوا منه أنه يقيم الحدود ، ويعزر ، ويحلق الرؤوس أيضاً ، وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبين خطأهم. وراح مرة في ثلة من أصحابه ومعهم حجارون وأمرهم بقع صخرة ، كانت نهر قلوط [2] بدمشق تزار وينذؤ لها ، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبة كان شرها عظيماً. وله اخبارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتي فيها بما أدي إليه اجتهاده ، واستدل علي ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي ، ويحاول قتله – والتعزير عند المالكية القتل – ولا تشتفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتي ينادي بدمشق: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة .

قال ابن كثير: وبهذا ، وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة ، وكذلك بكلامه بابن عربي [3] وأتباعه فحسد علي ذلك وعودي ، ولم يصلوا إليه بمكروه ، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه .

---

(1) أخرجه ابن ماجة (١٥٦٩) من حديث أبي هريرة ولمسلم (٩٧٦) (١٠٨) من حديث أبي هريرة أيضاً بلفظ " فزوروا القبور فإنها تذكر الموت " وكتاب أبن تيمية "الجواب الباهر في زيارة المقابر" من أحسن ما ألف في هذا الموضوع وهو كتاب مطبوع متداول بين الناس، ومع ذلك نري بعض الناس حتى اليوم ينسب لابن تيمية ما لم يقله دساً وافتراءً .

(2) المعروف الآن (بقليط) وهو نهر تجتمع فيه قاذورات عدد من أحياء المدينة، وتسقي منه بساتين الشاغور والميدان، وكانت هذه الصخرة عند مسجد النارنج. كما في البداية والنهاية ٣٣/١٤ .

(3) صاحب (الفصوص) و (الفتوحات) وغيرهما من الكتب التى تدعو إلي وحدة الوجود وقد بين العلماء أن هذه العقيدة أشد بعداً من اليهودية والنصرانية والمجوسية، ومن أجل كتبه أفتي عدد كبير من العلماء بكفره. انظر كتاب (تنبيه الغبي إلي تكفير ابن عربي). للإمام تابقاعي، وكانت وفاة ابن عربي سنة ٦٧٨ بدمشق.

قال : ولم يزل الشيخ ملازماً الاشتغال في العلوم ، ونشر العلم ، وتصنيف الكتب ، وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية .

ففي بعض الأحكام يفتي بما أدي إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم .

وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق على معتقد الإمام الشافعي[1].

❖❖❖❖❖

(1) محمد علي كرد، ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، دمشق: الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م، ص ٨-٤٢.

obeikandl.com